مستقبل الصين

الخاتمة

بقي علينا لأخذ صورة تامة عن بلاد الصين امرٌ عظيم هو عمدة هذه المملكة ومزيتها ومعوّل الذاهبين الى ثبات مستقبلها ومتانة منقلبها ألا وهو كثرة عديد اهلها وزخور لجج النفوس البشرية في ارجائها حتى انهم ليبلغون ثلث هذه الفترة الآدمية ويمثلون الواحدة من ثلاث فصائل الانسانية . ولم يعهد ان شعباً بلغ هذا المبلغ من الحصى وهو يؤول الى جلدة واحدة ويخضع لسلطان واحد . فالصين ثماني عشرة مملكة او اقليماً اذا اضفت اليها منشوريا الجنوبية صارت تسعة عشر اقليماً كل اقليم منها ينقسم الى ولايات واسم الولاية عندهم فو وينقسم الفو الى مقاطعات اسم الواحدة منها تشيو وينقسم التشيو الى كوين واسم الكورة هيان وقد تسمى بهذه الاسماء الامصار والمدن التي هي مراكز الولايات والعمالات . وان القرى التي تتألف منها الكورة تسمّى باو ويقال لها ايضاً تو والكورة او الهيان تتألف من ٧٠ الى ٧٠ قرية ويوجد منها ما هو متعلق بمراكز الولايات رأساً فيسمّى تشيلي تشيو ومنها ما هو تحت الادارة العسكرية ويقال له تين وان كانت مراجعته لمراكز الولايات رأساً قيل له تشيلي تين . ولا نرى لزوماً لوضع جدول احصاء الاقاليم كلٍّ على حدة مما يستغرق محالاً واسعاً وليس هو المقصود بالذات وانما نقول ان الاحصاء الذي جرى سنة ١٨٤٢ اسفر عن اربعمائة مليون واربعة ملايين واربعة وعشرين الفاً وستمائة واربع عشرة نسمة . ولا شيء يشبه الرمل والنمل مثل هذا . وعُدّلت مساحة هذه البلاد باربعة ملايين واربعة وعشرين الفاً وستمائة وتسعين كيلومتراً مربعاً فاصاب الكيلومتر الواحد مائة نسمة من السكان وهو شأو بليغ في العمارة . ويوجد في الصين نحو ١٩٠٠ مدينة من الامصار المعمّرة والقواعد والحواضر والمدن الكبار عدا القصبات والمدن الصغار . وغير خافٍ انهُ مضى على هذا الاحصاء نحو ستين سنة وتيقن فلا بدّ ان تكون النفوس زادت في هذه البرهة زيادة عظيمة ولولا استئصال الفتن المتتابعة بعض ولايات الصين وانهم في شرب الدماء يشتفّون وفي القتل لا يبقون ولا يذرون لاربى عدد اهل الصين على الخمسمائة بل الستمائة مليون ولضاقت بهم آسية بما رحبت وتحرّجت الارض بابناء السماء

وحيث قد بسطنا من أحوال هذه المملكة ما نظنهُ كافياً لمعرفة سرائرها ووطأنا من امورها ما فيهِ مقنع لتشخيص دائها واستشفاف ما انطوت عليهِ جوانحها على تنكّب منا لطريق الاطناب

خوف تبرّم القراء آن لنا ان نتكلم شيئًا عما ترجمهُ من مستقبل الصين الذي هو عنوان مقامنا ومدار خطابنا واذا كان مستقبل الصين وكل مستقبل في الارض منوطًا الآن بالعلاقة الاوربية مربوطًا بالحضارة الغربية لزم ان نوطئ شيئًا عن علاقة الصينيين بالغربيين وعلاقة الغربيين بالصينيين فنقول

سنة ١٨٧٩ لم يكن للغربيين في جميع بلاد الصين سوى ٤٥١ محلاً تجاريًا منها ٢٢٩ محلاً للانكليز والباقي لسائر الاوربيين وكان في جميعها ٣٩٨٥ شخصًا اذا اضفت اليهم السيّاح والمبشرين بلغ عدد جميع الافرنج في الصين ٥٠٠٠ نسمة . وقد ازداد هذا العدد زيادة عظيمة منذ ذلك العهد ولكنهُ لا يزال قليلاً بالنسبة الى اعداد الصينيين الهائلة ولا يزال كالشعرة البيضاء في الثور الاسود . وانما كان تأثير هذا العدد القليل عظيمًا في احوال الصين وعاداتها ومآخذها ومناحيها وكان لهُ فعل على تجارتها وصناعتها ولغتها وحسبك انهُ تشعب في الواحل لغة من اللغة الانكليزية فاوسعها التجار الصينيون تخليطها بشيء من لغتهم فصارت مزيجًا من اللغتين وساعدتهم على التعبير عن كثير من الافكار الجديدة والمعاني المحدثة والاغرب من هذا ان اساس هذه الرطانة برتغاليّ لا انكليزيّ فصارت هذه اللغة الجديدة متزشحةً عن لغات ثلاث

هذا من امر اللغة واما من امر الاخلاق والعادات فكان الصينيون في البداءة لا يخرجون من بلادهم ولا يخالطون غريبًا ولا يعرفون الغربة والسلطان يحظر عليهم ذلك وما زالوا على هذه الحال حتى وطئت ديارهم اقدام الافرنج فعوّدوهم السفر وجرّأوهم على الاغتراب فانسلّت منهم جماعات خفيةً ثم تتابعوا حتى بلغ عدد المهاجرين منهم الى الآن ثلاثة ملايين في بلاد الغربيين واما البلاد الغربية من الصين والاصقاع الشرقية ففيها اضعاف هذا العدد من الجالية الصينية لأن الذين خرجوا الى ما وراء السور مثل منغوليا ومندشوريا وكانسو الخارجية يناهزون الثلاثة عشر مليونًا عدا الجالين الى جزر البحر المحيط والممالك الهندية الصينية وهم لا ينظرون الى هذه البلدان بالعين التي ينظرون بها الى بلاد المسيحيين فإنهم يدفنون في تلك موتاهم ويستصحبون اليها نساءهم وليس امرهم كذلك في شيلي وبيرو وكاليفورنيا فانهم يرسلون منها جثث موتاهم الى بلادهم الاصلية تطوى المسافات الطوال لئلاّ تدفن خارجًا عن بطن امهم الارض الصينية وكذلك لا يزال السفر الى الخارج محظورًا على النساء فكثيرون من الصينيين اذا عزموا على الرحيل وتركوا من خلفهم ذريةً ضعافًا باعوهم بيعًا لئلاّ يهلكوا جوعًا فآثروا بيع نسائهم واولادهم على تغريبهم الى الخارج . والتزوج مع الاجانب ممنوع عندهم فلا

كفوه للصينية عندهم غير الصيني ومن خالف ذلك فقد باء بغضب من السماء . وكل اطوار هذه الامة تدلك على شدة استمساكهم باطوارهم القديمة وتفورهم من كل غريب عنهم وانهم يريدون ان يبقوا صينيين كما كانوا منذ اربعة آلاف سنة

وفي اي محل وجدوا من بلاد الغربة تساندوا بعضهم على بعض وانضموا كتلة واحدة لانهم احنى الناس ضلوعاً بعضهم على بعض واكثرهم غراماً بالانضمام والاجتماع ولهذا تكثر عندهم الجمعيات فلكل شيء عندهم جمعية ولكل عمل عصبة وهم ينصبون عليها جميعاً الرؤساء والنقباء حتى يقال ان المتسولين منهم لهم رؤساء ونقباء كغيرهم . واينما حلوا وحيث نزلوا قطعوا ارزاق غيرهم بصبرهم العجيب وثباتهم الغريب وقناعتهم الموصوفة وكونهم قوماً يعتادون كل شيء حتى اضحت مزاجتهم لا تطاق ومجاورتهم احرّ من مجاورة النار ذات الوقود . ولما شوهد منهم هذا الالحاح في المسابقة ثاروا بهم في اميركا يقتلونهم وعقدت الولايات المتحدة معاهدة مع الصين بمنع سفرهم الى هناك وضيقوا عليهم في الجزر التابعة هولنده من البحر المحيط وعينوا لهم اماكن مخصوصة للسكنى وحرفاً مخصوصة لا يتعدونها في الشغل

وقد كان لهذه المهاجرة وذاك الاختلاط مع الغربيين تأثير عظيم على مصير امور هذه المملكة وفعل بيّن في اخلاق اهلها ولولا حجر الحكومة الصينية وضغطها على امتها وانبذاذها من وراء سورها لانفسح في دخول الفنون الاوربية فيما بينها لكانوا تدرّجوا تدرّجاً لا يباريهم فيه احد في مراقي التمدن الاوربي لانهم قوم صنّع الايدي والاوربيون قيام امرهم الصناعات ولانهم يجيدون التقليد ويحسنون المباراة ولا يرون شيئاً الاّ ذلّلته ايديهم وكثيرون منهم اصبحوا يقدرون الحضارة الاوربية قدرها ويعلمون ان علومهم القديمة قد شخت آيتها وانها صارت لا تفي بغرضهم ولا تجيء من وراء حاجتهم وان الاوربيين سادوا وشادوا وادركوا ما ارادوا بدون ان يتمّ لهم وقوف على كليات كنفوشيوس الخمس فابتدأوا يتدارسون علوم الافرنج وترجمت الوف من كتب هؤلاء الى اللسان الصيني على ما في الترجمة الى الصيني من الصعوبة وصارت لهم جرائد وانتشرت مجلات واقبل على قراءتها اقبال العطاش على مورد عذب

وعليه فان كان العلم هو الملك حقاً وكانت اوربا لم تطل على هذه الغايات المتطاولات من الحول والقوة والانبساط والاستعلاء الاّ بعزائم العلم وكرامات الفن فلا شك ان الصينيين يحرزون هذا العلم يوماً من الايام ويحمون به ذمارهم لانهم مهما دافعوا تيّاره عنهم فلن يستطيعوا دفعهُ بعد ان خيّم الافرنج بدراهم ولان الحاجة تقضي عليهم بان يولوا وجوههم شطر

الغرب للاستنارة بعلومهِ والتدرُّس بها ضد من يروم استباحة حماهم والناس اشبه بزمانهم منهم بآبائهم . والصينيون قومٌ يحترمون العلم ويعظمونهُ ويرجحونهُ فوق كل شيء حتى ان اسم العلم عندهم الذي هو كياو يعني بهِ الدين ايضاً فكأنهم جعلوا العلم والدين عندهم في ميزانٍ واحد والتعلم فريضة على جميع الذكور لا مندوحة عنها وفي كل قرية مكتب ينفق عليهِ من المجلس البلدي . والعلم والعلماء والكتابة حتى الكاغد عندهم شأن يتورَّعون فيهِ ولا ورع العبادة . وان قيل ان الصينيين بتعصبهم لعلومهم البالية وبغضهم للاجانب يتحرجون من اخذ شيء عنهم كما يفهم من نفس مقالك هذا قلت ان الزمان الذي من غالبهُ غُلِب سوف يقودهم الى طاعة العلم الصحيح ويجدع مارن كبريائهم وانهُ مع ذلك مخطيء من يظن كون التغيير عند الصين مخالفاً لمذهب كنفوشيوس فقد حصلت في الصين انقلابات كثيرة ولم يكن فيها شيء سرمداً وقد وود في اقوال ذلك الفيلسوف الاكبر عندهم "ان شئت ان تصلح نفسك فجدِّدها كل يوم" ولئن كان التجديد بطيئاً الى الآن فالعلة فيهِ كبر الصينيين وشموخهم بانوفهم عن الاقرار بضعفهم وتوهمهم بانهم اعلى الامم كعوباً في الحضارة وانهم الامة الوحيدة في الارض وبديهي انهُ يصعب عليهم الانتقال من هذا الزعم الى كونهم دون الاوربيين بمنازل دفعةً واحدة وانهُ لا بد لذلك من التدريج والطفرة محال كما لا يخفى

نعم ان الصينيين لا يتقدمون في هذا الامر تقدم اليابانيين لانهُ ليس عندهم اقدام اليابانيين ولاحماسهم وانما يقابل ذلك منهم الصبر والثبات وهو عامل لا يقل عن الاول نفوذاً في تقدم الامم

بقي علينا ان نتساءل هل تبقى الصين لاهلها ام يغير عليها الاوربيون من كل جهةٍ فيتقاسمونها فيما بينهم وهو المراد بمستقبل الصين والموضوع بحثٌ لافاضل الكتَّاب واهل النظر يقتدحون فيهِ زناد الافكار وكل يؤيد مذهباً ويعضد رأياً فذهب بعضهم الى ان مصير الصين كمصير غيرها من غير الاوربيين وهو السقوط في ايدي ابناء الغرب ان لم يكن عاجلاً فآجلاً وذلك لما ظهر من وهن قوتها الحربية وانها مملكة لينة المعاطف سهلة فلا يخشى بأسها ولا يُتعب مرامسها وانهُ ان كان الخلاف الدولي حائلاً الى الآن دون تشطُّر اضرعها فلا بد ان الضرورة تقضي بقسمةٍ مناسبة يخرج منها كل فريقٍ بسهم يُرضيهِ فالروسية تطمح الى منشوريا وقد شرعت في ان تأخذها وانكلترا وفرنسا واليابان والمانيا كل دولة منها ترتضي بولايةٍ كبيرة لا تتعداها الى اختها وهلمَّ جرًّا وذهب آخرون الى ان مستقبل الصين انما هو لليابان لانها دولة شرقية كدولة الصين والضرورة تحكم على الصينيين بموادَّة اليابان لا حبًّا بهم بل بغضاً

بالاوربيين والله قد يجيء زمن تتفق فيه هاتان الامتان وتقومان يداً واحدة على الغريب. وكل من الافتراض الاول والثاني ترد عليه الاعتراضات الكثيرة لأن اوربا لا يسلم بعضها لبعض بالاستيلاء على الصين وان التجزئة التي يحلم بها بعضهم غير متيسرة بل هي باب من ثاني يوم واذا كان الاوربيون لا يسمحون فيما بينهم بتركة الصين فكيف يسمحون لليابان وهي شرقية وهم لا يطيقون رجوع العلاء للشرق. وقال آخرون ان مستقبل الصين انما هو للاسلام بما وجدوا من الفرق بين الصيني المسلم والصيني الوثني وان الاول يفضل الثاني من كل وجه ورأوا انه اذا اعيت عقائد الصينيين عن النهوض باهلها فانهم يفضلون الاسلام على غيره من الاديان لانهم يكرهون الاوربي وديانته كراهة دلّت عليها الحوادث الاخيرة والاسلام دين قسم منهم فالارجح انهم يميلون اليه وهو يزداد بين ظهرانيهم بسطة وظهوراً. وقد تخرّف كثير من سياح الافرنج من عاقبة تقدّم الاسلام هناك كما قدمنا في جزء ماضٍ من المقتطف. والذي نراه انه ان كان المقصود بالمستقبل هو المستقبل الديني فربما كان للاسلام الرجحان على غيره في تلك البلاد ولا شك انه يمشي في قلب الصين كما يمشي في قلب افريقية وان اوربا لا تنظر بعين الرضى الى هذا التقدم ولو اخفى ذلك رجال السياسة في صدورهم وان المسلمين يتعزّون على تأخر دينهم في هذا القرن بتقدم دينهم. ولكن لو كانت قوة العدد كافية بدون التمدن لاغنت الصينيين انفسهم وهم اكثر من اهل الاسلام عدداً وكيف نرجو ان يستأثر الاسلام بملك الصين على مرأى من دول الغرب وهو يعجز عن حفظ ملكه القديم واذا احسّ اهل الغرب منه نبأة للنهوض في ارضه اخذوا بخناقه فما ظنك لو تحرك في ارض غيره لا جرم ان دول اوربا تقاتل قتال المستميت دون ان ترى مملكة الصين في ايدي المسلمين خشية ان تجمع يوماً بين التمدن الاوربي والدين الاسلامي فتكون الضربة القاضية على ملك الاوربيين في المشرق

ثم من الناس من يظن ان مآل امر الصين انما هو الى الروسية لأن الروسية اشد جارات الصين بأساً واحسنهن مستقبلاً وهي تناخمها مسافة ثمانية آلاف كيلومتر وقد تحيزت من جوانبها ما لم تحيزهُ دولة سواها وصيّرت منشوريا تحت طائلة نفوذها وزأر اسدها في سواحل كوريا ومدخل البحر الاصفر وبوغاز جزر اليابان فهي ذات الكلمة العليا في تلك الاصقاع. وهذا الرأي على كونه اقرب الى العقل مما تقدمهُ فلا يزال بعيداً لان سائر الدول وخصوصاً انكلترا واليابان يزاحمن الروسية بالمناكب ويدفعنها بالراح ولأن لها من العداوات التي بجانبها في اوربا ما يطأمن من مرقب طماحها على الصين ويفسح في اجلها. وذهب قوم الى ان كثرة

احتكاك الاوربيين بالصينيين ليست من مصلحة اوربا في شيء لأن الاوربيين بكثرة تحككهم بالصين يعلمونهم اطوارهم ويحملونهم على علومهم وينهجون بهم مناهجهم في الحضارة رغماً عن انوفهم فكأنما يسلمونهم اسلحتهم ليقاتلوهم بها وانهُ ان استمر الامر على ما هو عليهِ فلا يمضي زمن طويل حتى يتم للصين ما تمَّ لليابان من هذا القبيل فلا يعود لاحد مطمع في بيضتهم لانهم من الكثرة والالتفاف بحيث لو تعلموا ونسقوا جيشهم على الترتيب الاوربي لكان لهم فيلق ترجف لمشيتهِ دفتا الشرق والغرب وخيف من استئناف دور جنكيز وما ذلك على الايام بعزيز

ويقول بعض السياح الذين داخلوا الصين وعاشروا اهلها ورأوا ذلك الشعب المتموّج تموّج الباسيفيك مثل ريشتوفن وارمان دافيد وفازيليف ان اختلاط الصينيين بالاوربيين والاميريكيين لا يغير احوال الصينيين فقط بل يؤثر في هؤلاء ايضاً لأن الماء والخمر اذا امتزجا تغير لونهما معاً ومن رأى الصينيين في بلادهم وعلم انهم نحو نصف مليار من النسَم على مشرب واحد ومن اصل واحد عرف ما يعترض الاوربيين من الصعوبة في استغراق هذا الجنس لا بل تأكد لديهِ انهم اذا ولجوا ثغر تلك البلاد قصروا عن سدها وانهم مهما اجتمعوا حولها فلا مندوحة لهم في الآخر ان يتصدعوا عنها . ومنهم من رأى الأبلغ في نصح اوربا ابقاء الصين في وحدتها معزولةً عن الناس ومعزولاً عنها الناس تأميناً لمستقبل اوربا وكفًّا للشرق عن الغرب وهؤلاء هم الذاهبون الى ان الصين المتململة تندفق على سائر البلاد فلا يقف احد في وجهها

والبعض يهنئُ اوربا بعكوف الصينيين على الافيون الذي يخبل العقل ويُذهب الفكر وفاسيليف يبالغ فيقول لولا الافيون لغزت الصين العالم بأسره وخنقت اوربا واميركا بانبساطها عليهما وكثيرون من الافرنج يرددون ذكر "الخطر الاصفر" يعنون بهِ الخوف من غوائل الصين المستقبلة اذا اخذت بمبادىء التمدن الغربي وانها تصلي اوربا حرباً اقتصادية لا يكفيها بها احد

وعندي ان الصين وان كانت لقمة لا تسوغ بسهولة في مزدرد اوربا لكثرة عدد اهلها ووحدة جنسهم وامتلاء بلادهم فانها نعامة شائلة ودولة زائلة الاَّ اذا حذت حذو اليابان واقتدت مثلها باوربا فان اليابان لم تأمن على استقبالها ولم تدخل في صف الدول العظام ولم تحسّ بقوة تناهض بها روسية في الشرق الاقصى ولم يصر الواحد من اهلها كفوء العشرة والخمسة عشر من اهل الصين الأَّ بصولة التمدُّن الغربيّ وفضل العلوم الحديثة فالصين تدَّرئُ من وراء كثرتها ووحدة جنسها وبعد مزارها ما شاءت ان تدَّرئُ ولكن لا بد ان تنجلي غيابة

السحر في الآخر ويرتع السيف في رقاب الصينيين ان لم يتنبهوا من غفلتهم ويثيبوا من نعجتهم فانهُ لا يكثر كثير مع الجهل ولا يقلّ قليل مع العلم ومستقبل الصين موقوف على تعلمها والله وحدهُ علاّم الغيوب

شكيب ارسلان

الحول وعلاجهُ

علمت بالمراقبة ان الحول نادر في اهالي أوربا فقد يقيم الغريب المراقب بينهم حولاً ولا يرى احولَ . والسبب في ذلك ليس اختلاف الاقليم فالحوَل ليس من الامراض العين التي يحدثها اشتداد الحر وتصاعد العثير وعدم الاعتناء بنظافة الأجسام الى غير ذلك من المسببات المتوفرة في المناطق الحارة وانما الحوَل مرض ينشأ عن ضعف خفيّ في النظر كما سنذكر ذلك وليس للاقليم الحار شأن في حدوثهِ . ولكنّ السبب في قلة الحوَل في الغرب وكثرتهم في الشرق هو ان الصبي الغربي الاحول يذهب بهِ ذووهُ الى اطباء العين فتستعمل لهُ الطرق لتقويم نظرهِ المعوج واذا اهمل اهلهُ امرهُ لا يلبث ان يشبّ ويدرك حتى يهرول الى رمديّ يشفيهِ من دائهِ . وذلك بخلاف ما يرى في الشرق حيث الاحول لا يهتم بأمرهِ اهلهُ اذا كان قاصرًا ومن شب وكبر ورأى حولهُ الحول كثيرين لا يكترث للامر بل يرضخ صاغرًا راضيًا بدائهِ مستسلمًا لحكم القضاء والقدر فيعيش احول ويموت احول

وكان يلتمس لاهل الشرق عذر في ما مضى لانهُ لم يكن بين ظهرانيهم العدد الكافي من اطباء العين واما الآن فما عذرهم وقد كثر الاطباء حتى لم تعد تدخل بلدًا كبيرًا من بلاد المشرق الاّ وجدت فيهِ واحدًا منهم

والغرض من مقالتي هذه هو اولاً ان اتكلم موجزًا عن هذا الداء وطرق علاجه ليعلم القراء انهُ داء يمكن احيانًا كثيرة ازالتهُ منذ الصغر باستعمال الطرق التي سأذكرها وبانهُ ان لم تنجح هذه الطرق يمكن تقويم العين الحولاء بعملية جراحية قليلة التعذيب

ثانيًا لاورد لزملائي الاطباء وعلى الخصوص المنقطعين منهم لامراض العين ما قالهُ العلامة باناس الرمديّ المشهور في خطاب القاهُ اخيرًا في مستشفى اوتيل ديو في لندن تطارحهُ الحديثة في عملية الحول لعلهم يستصوبونها مثلي ويتبعونها ولعلي بذلك افيد الطبيب والمتطبب

ما هو الحول : الحول حالة مرضية لا يمكن معها اتجاه العينين الى الشيء المحول اليهِ النظر

متى يظهر : لا يظهر هذا الداء غالبًا قبل السنة الثانية من العمر غير انّ بعض العالمين